مكتبتي

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

مكتبتي شيء عظيم جداً ـ ولست أعني أنها كبيرة ضخمة ، وأن في خزاناتي آلافاً مؤلفة من المطبوع والمخطوط ، فما عندي مخطوط واحد ، ولا ولوع لي بجمع هذا الضرب من الكتب ، وما يمكن أن تبلغ كتبي الآلاف بعد أن احتجت أن أبيع منها مرات ، وإني لمجنون بالكتب ، ولكن جنوني بما فيها لا بأشكالها وألوانها على رفوفها . وقد اعتدت الا أبالي أن يبقى الكتاب عندي بعد أن أقرأه أو أن يذهب ، ولم أكن كذلك ، ولكن المرء مما تعود . وعلى أنه سيان أن أحفظ بالكتاب وأن أبيعه كما اشتريته ، أو أهبه ، فما الى الوصول اليه سبيل في هذه الخزانات ، ولأهون عليّ أن أشتري منه نسخة أخرى من أن أهتدي الى موضعه وأعرف أين اختبأ . ومتى كان هذا هكذا ، فما حرصي على كتاب يحاورني ويهرب مني وأنا أدور بعيني على الرفوف ؟؟

وليس أثقل علي ، ولا أشق على نفسي من الاقامة في بيت واحد زمناً طويلاً ، ولو وكل الأمر لاختياري لاتخذت كل يوم بيتاً ، ولكن الكتب راضتني على السكون وردتني على مكروهي ، فأنا الآن كالمقعد لا أكاد أتحول ، إلا أن أحمل على الانتقال حملاً ؛ ذلك أني كلما سكنت بيتاً ، أروح أتخير للكتب أوسع الحجرات وأكثرها شمساً وهواء ، ثم أقول دعوا الصناديق والقرارات حتى أفتحها وأخرج ما فيها وأرتبه بنفسي ، فتترك شهوراً ، تنقلب الحجرة في خلالها مزبلة ، فيتبرم أهلي ويلحون عليّ أن أفرغ الصناديق

فأقول : « لا بأس . موافق »

فتسألني زوجتي : « ومتى تفعل ؟ »

فأعدها خيراً ، فتلح عليّ ، فأؤكد لها أني فاعل ذلك غداً إن شاء الله

فتقول : « إن شاء الله معناها عندك أنك لن تفعل أبدا »

فأقول : « استغفري الله يا امرأة ! إن شاء الله يعني إن شاء الله ، أليس كذلك ؟ »

فتقول : « ولكني أريد تنظيف الغرفة ! ألا ترى هذا التراب ؟ »

فأقول : « صحيح ! كثير »

لأني أحب أن أقر بالحق وأكره المكابرة ، فتهمل الثناء على ذلك وتقول :

« وهذه الصراصير ؟ والفيران ؟ لا . لم يعد هذا بيتاً يُسكن »

فأقول : « ألا أقول لك وأريحك ؟ »

فتقبل عليّ مسرورة وتسألني : « ماذا ؟ »

فأقول : « أفرغي أنت الصناديق ، ورصي الكتب على الرفوف ـ على أي ترتيب ـ وارفعي التراب ، واقتلي الصراصير ، وطاردي الفيران ـ وعلى الجملة ، نظفي الغرفة ـ هيه ؟ ما قولك ؟ »

فتوافق ، وأعود من عملي فألفى المكان نظيفاً ، فلا فيران ولا صراصير ولا تراب ، ولا صناديق ، ولكني أحتاج أن أرجع الى كتاب ، فأفتح خزانة بعد أخرى وأنظر الى ما تكدس على رفوفها فأرتد يائساً وأصيح بزوجتي :

« يا امرأة ! أين وضعت ابن الروى ؟ » مثلاً !

فتقول : « عندك بالطبع »

فأسألها : « أواثقة أنت أنك لم تضعيه في المطبخ ؟ »

فتقول محتجة : « المطبخ ؟ كيف تقول هذا ؟ أهذا جزائي على تعبي ؟ »

فأقول : « معذرة ، ولكني لا أراه هنا »

فتقول : « ابحث عنه »

فأبحث ـ أعني أني أروح أخرج من الخزانة صفاً بعد صف ، وأضع ما أخرج على الأرض هنا وهنا ، حتى تخور قواي ، وينفد صبري ، ويهي جلدي ، وأنظر الى ما فرشت به الأرض فأجزع ، وأغافلها ـ أعني زوجتي ـ وأتسلل خارجاً ، وأرد الباب ورائي حتى لا ترى شيئاً

وأعود في الليل ، وفي ظني أنها نائمة ، وفي عزمي أن أعيد الكتب الى الرفوف ، فأفتح الباب برفق ، فاذا الكتب قد وثبت بقدرة ربك ، وصفت نفسها على الرفوف ، وتزاحمت ، ودخل بعضها في بعض ـ خوفاً من الفيران ولا شك ! فأتنفس الصعداء وأفرك كفي ، وأقول : « الحمد لله ! ياما أكرمك يارب ! » وإذا بزوجتي تقول : « وآخرتها معك ! ألا يمكن أن تعيد كتاباً إلى موضعه بعد إخراجه ؟ ألا بد أن ينشف ريق

كل يوم بسبب هذه الكتب ؟ شيء غريب والله ! كيف ومتى يمكن أن أفرغ للبيت إذا كانت هذه الغرفة هماً لا ينقضي ؟ »

وأحب مرة أخرى أن أقرأ في كتاب ، فأدخل الغرفة ، فتدخل ورائي تجري ، وتتناول ذراعي وتشدني فأستغرب وأسألها « ماذا ؟ »

فتقول بحدة « ماذا أنت ؟ »

فيزيد عجبي وأقول : « ماذا أنا ؟ ألا تعرفين ماذا أنا ؟ سيدك ياستي ! »

فتقول وهي تجاهد أن تعبس ، والضحك يغالبها : « دع المزاح الآن ! ماذا تريد أن تصنع ؟ »

فأقول « شيء جميل ! وكيف يعنيك هذا يا امرأة ؟ »

فتقول : « يعنيني مصير الغرفة — هذا ما يعنيني ياسيدي — ولست أنوي أن أدعك تقلبها مزبلة فقد ورمت كفاي من العمل فيها »

فأقول : « وماذا تصنع هذه العجوز ؟ تأكل وتشرب فقط وتقبض أجرها آخر الشهر ؛ وهذه الفتاة الخفيفة لماذا لا أراها تعمل شيئاً غير اللعب مع الأولاد ؟ وتلك الثالثة . . . أهو بيت أم دكان مخدم ؟ أريد أن أعرف هذا أولاً »

فتقول : « لا تحاور . إن الكتب لا يمسها غيري ، فإني أخاف عليها التمزيق . . »

فأشكرها ، فتقول : « العفو ! ولكني أخاف منك على الغرفة ، فاصنع معروفاً وارجع عنها »

فأسألها : ولكن كيف أرجع وأنا أريد كتاباً ؟ »

فتقول : « لا تتعبني . . . من فضلك . . . أرجوك »

فأشعر لها برقة وأقول : « يا امرأة ! هل استطعت قط أن أرفض لك رجاء ! ؟ »

وأتبعها ، وأنصرف عن الكتب والقراءة ، وأعزي نفسي بأني كنت سأنصرف لا محالة عن ذلك مرغماً ، فما أطمع أن أجد كتاباً أطلبه

من هنا صار المعقول أني إذا اشتهيت أن أقرأ كتاباً أو أردت أن أراجعه ، أن أشتريه ، وقد أشتريه ، وأضعه على الكتب إلى المساء ، فتراه زوجتي فتفتح خزانة وتدسه في صف ، وأعرف ماصنعت به ، فأشتري نسخة أخرى ، ومن أجل هذا أيضاً صار عندي من بعض الكتب ثلاث نسخ أو أكثر

وقال لي أخي مرة : « يحسن أن ترتب هذه الكتب »

قلت : « يا أخي ، كيف أصنع ؟ »

قال : « أجيئك ببطاقات ، تكتب فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم ، فإذا طلبت كتاباً فراجعت البطاقات ، فسهل عليك إخراجه »

قلت : « رأي سديد — هات البطاقات »

فجاءني ببضع مئات منها ، ودفع بها إليّ ، فنظرت اليها وشكرته ثم قلت له :

« أما البطاقات فجاءت ، وأما الكتابة فيها فأحسبها تقتضي أن أخرج الكتب واحداً واحداً ، وأقيد أسماءها ، ثم . . . »

فصاحت زوجتي : « لا لا لا لا ! أرجو . . . أرجو ألا تفعل . . . »

فالتفت اليها وقلت : « يا امرأة ! كيف ترضين عن هذه الفوضى ؟ بل لا بد من الترتيب »

فقالت : « أنا واثقة أن الكتب لن ترتب . وكل مايحصل هو أن تخرجها وتكومها على الأرض وتتركها ، فيغطيها التراب ، وتجتمع عليها الصراصير ، فأعود إلى نفض التراب وطرد الصراصير . . . لا ياسيدي ! لن أسمح بهذا أبداً ! »

فنظرت إلى أخي وقلت : « أتسمع ؟ إنها لا تسمح ! فما رأيك ؟ »

قال : « الحق معها . ولو كنت أنا مكانها . . . »

فلم أدعه يتم الجملة وصحت به : « أعوذ بالله ! »

فشكرني ، وقال « إنما أعني . . . »

فمدت إلى مقاطعته وقلت : « دع ما تعنيه ، من فضلك ، وحسبك أنك نغصت عليّ حياتي ! »

فدهش وقال : « كيف ؟ »

قلت : « سأري وجهك بعد الآن كلما نظرت إلى امرأتي . . . أعوذ بالله . . . يا ساتر يارب . لطفك اللهم ! »

وقد حرصت على البطاقات ، لأقيد فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم ، فما من هذا مفر ، ولكن العقدة أن زوجتي تؤثر الترتيب الحالي ، وقد بلغ من رضاها عنه وخوفها عليه أن يضطرب أو يفسد ، أنها أخفت مفاتيح الخزانات لا أدري أين ؟ بارك الله فيها — أعني زوجتي لا الخزانات

ابراهيم عبد القادر المازني